في مفهوم الآخر

م.د. نضال إبراهيم
سلام عبد الواحد جبارة
كلية التربية – جامعة البصرة

الآخر في معاجم اللغة هو الغير[1] , أو هو أحدُ الشيئين[2] , وهذا التعريف يَفترض وجودَ شيئين يكون كلٌ منهما آخرَ بالنسبة إلى صاحبه , كما يَفترض أنَّ ثَمَّةَ اختلافاً بين هذين الشيئين ؛ إذ لو لم يكن هذا الاختلاف لكانا شيئاً واحداً , كما يفترض ـ لإنتاج مفهوم الآخر ـ نوعاً من الاقتران والتلازم بينهما , هذا الاقتران هو الذي يفضي إلى مفهوم الآخر . وبمعنى آخر فإن مفهوم الآخرَ هو وجود نسبي يعتمد في تحققه على وجودٍ مغايرٍ له , أي أن الآخر لا يمكن أن يوجد إلا ضمن ثنائية ما (ذات ـ آخر) , وعلى ضوء طبيعة الاختلاف والمغايرة بين ركني هذه الثنائية يمكن أن يُحَدَّد نوعُ الآخر وطبيعةُ العلاقة معه .

وقد فرق بعض أصحاب اللغة والمفسرين [3] بين (الغير) وبين (الآخر) بأن جعلوا مدلول الآخر خاصاً بجنس ما تقدمه , خلافاً للغير . فلو قلت : (جاء رجلٌ وآخرُ معه) لم يكن هذا الآخرُ إلا رجلاً . وقد حملوا لذلك قول الراعي :

صلَّى على عزةَ الرحمانُ وابنتِها   ليلى وصلى على جاراتِها الأُخَرِ [4]

على أنه جعل ابنتَها جارةً لها لتكون الجاراتُ الأُخَرُ من جنسها . وهذه قضية اختلفت فيها الآراء , ولعل أقربها إلى الصواب هو أن المقصود من قولهم (جنس ما تقدمه) " **أن يكون الاسم [المحذوف] الموصوف بآخر ـ في اللفظ أو التقدير ـ يصحُّ وقوعُه على المتقدم الذي قُوبِل بآخر على جهة التواطؤ ؛ ولذلك لو قلت : جاءني زيد وآخر كان سائغاً ؛ لأن التقدير ورجل آخر , وكذا جاءني زيد وأخرى تريد نسمة أخرى , وكذا اشتريت فرساً ومركوباً آخر سائغ , وإن كان المركوب الآخر جملاً , لوقوع المركوب عليهما بالتواطؤ** " [5] وهذا يعني أنهم لا يتحدثون عن الجنس بمعناه المنطقي الحدي , بل عن نوع من المجانسة والمشاكلة أو الاشتراك في أصل ما . وبهذا ـ ومع شيء من التوسع ـ يمكن أن يكون أيُّ شيء في الكون آخرَ بالنسبة إلى أي شيء آخر ؛ لأنهما لا بدَّ أن يشتركا في شيء ما حتى

وإن كان هذا الشيء هو أصل الوجود نفسه . وهكذا يمكن أن تصبح العصا ـ مثلاً ـ في قول أبي حية النميري أخرى مقبولة للساقين لأنها تشترك معهما في أنها وسيلة من وسائل المشي :

وكُنتُ أمشى على ثِنْتَينِ مُعتَدِلاً   فصرتُ أمشى على أُخرى منَ الشَجَرِ (6)

ومن الجدير بالذكر أنه لم يرد في القرآن الكريم ـ حسب استقصاء الباحث ـ استخدامُ الآخر , بأية صيغة من الصيغ التي ورد فيها : (آخَر , آخَرَان ، آخَرَين , آخَرُون , آخَرِين ، أُخْرَى , أُخَر) , إلا للدلالة على ما يجانس ما قبله , إذا استثنينا اختلاف المفسرين في دلالة كلمة (آخرين) في قوله تعالى " **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآَخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا** " (7) حيث قال بعضهم إنَّ المراد ناس آخرون لا غير (8) , وقال البعض الآخر إنه يمكن أن يكون خلقاً آخر غير الإنس (9) .

ومهما يكن من أمر فقد استقر استعمال الآخر في الدراسات المعاصرة على المعنى العام للمغايرة سواء أكانت هذه المغايرة في العدد أو الماهية (10) , وبهذا يصبح مفهوم الآخر أكثر سيولة وانفتاحاً . بل قد يصبح عصياً على التحديد ؛ فهو مفهوم يتأسس ـ كما مرَّ ـ على مفهوم الذات المقابل له " **أي أن ثمة سمة أساسية جوهرية تحدد مفهوم الذات مما يجعل الآخر مختلفاً عنها , وبالتالي * لا ينتمي إلى نظامها , أياً كان** " (11) . فالجماد آخرُ بالنسبة للحي , نباتاً كان أو حيواناً , وغير الإنسان ـ من الحيوانات ـ آخر بالنسبة للإنسان , وغير المسلم آخر بالنسبة للمسلم وغير العربي آخر بالنسبة للعربي , وهكذا فالمصري آخر بالنسبة الى العراقي والبصري آخر بالنسبة الى العماري في سلسلة من الثنائيات لا تكاد تنتهي إلى أن تصل إلى الأنا الفردية التي يكون كل الناس ـ فضلاً عن كل الموجودات ـ آخرين بالنسبة إليها , بل قد يجرد الإنسان من نفسه آخرَ (12) حين يعيش شيئاً من صراع داخلي حول قضية نفسية أو فكرية .

وهكذا فإن ظاهرة الآخرية هي ظاهرة متجذِّرة في الوجود الإنساني , بل في الوجود كله , هذا الوجود الذي خلقه الله تعالى قائماً على الاختلاف والمغايرة . والعلاقة مع الآخر ـ بمعناها العام ـ هي علاقة مع الوجود الذي يعيش الإنسانُ جزءاً منه , شاء ذلك أم أبى , وطبيعة هذه العلاقة هي التي تحدد هويةَ الإنسان وموقعَه من الكون ودورَه فيه .

فالاختلاف بين الإيمان والإلحاد هو في حقيقته اختلاف في طبيعة العلاقة مع الآخر/ الخالق , والاختلاف بين من ينادي بضرورة الحفاظ على البيئة وترشيد استهلاك طاقاتها وثرواتها , وبين من يلوثها ويستنزف هذه الطاقات والثروات , إشباعاً لأطماعه الشخصية , هو في حقيقته اختلاف في طبيعة العلاقة مع الآخر / الطبيعة . فهوية الإنسان إذن هي طبيعة علاقته بالآخر , على طول خط الآخرية

* كذا في الأصل .

وعرضه , وما اختلاف الفلسفات والايديولوجيات عن بعضها ـ سماويةً كانت أم أرضية ـ إلا اختلاف في طبيعة تنظيمها لهذه العلاقة .

إن سيولة مفهوم الآخر وانفتاحه على مصاديق متعددة ومتغايرة فيما بينها , يجعل من الصعوبة بمكان أن نتحدث عن طبيعةً معينة سلفاً للعلاقة مع الآخر , فقد تكون علاقة صراع ومغالبة وإقصاء حين يكون الآخر عدواً , وقد تكون علاقة تفاهم وتناغم وتكامل حين يكون صديقاً وحليفاً , وقد تكون علاقة اقتداء وتَمَثُّل حين يكون قدوة ومثالاً , وقد تكون علاقة تقديس أو احتقار أو محايدة , اعتماداً على طبيعة الآخر وطبيعة الذات وطبيعة التمركز حول هذه الذات .

ويبدو جليّاً من خلال المرويات الدينية , وما يحكيه القرآن الكريم عن خلق آدم (ع) , وإسكانه الجنة , ثم هبوطه إلى الأرض , أن الإنسان خُلِقَ , منذ أن خُلِقَ , وهو مدرك لذاته وللآخر ولطبيعة علاقته به , سواء أكان هذا الآخر ربّاً أنعم عليه بنعمة الوجود , أم ملائكةً سجدت له امتثالاً لأمر الله تعالى , أم شيطاناً يوسوس له ليُزِلَّهُ عما كان فيه من النعيم , أم موجوداً آخرَ من موجودات الكون . كما أنه مدرك لتميزه ومغايرته لكل الموجودات الأُخرى : (رب , ملائكة , شيطان , جنة , أرض , شجر مباح , شجرة محرمة , امتثال لأمر الله تعالى , وسوسة إبليس , عصيان , استغفار , توبة) ؛ إذ ليس من المعقول أن يشعر بطبيعة الاختلاف والمغايرة بين الموجودات ثُم لا يشعر بمغايرته هو لهذه الموجودات وتميزه عنها .

وهذا يجنبنا الحاجة إلى البحث الذي تتكلَّفُهُ بعضُ الدراسات [13] عن اللحظة التي شعر الإنسان فيها بتميزه عن محيطه ومغايرته له ؛ إذ هو لم يكن يوماً متماهياً معه تماهياً تاماً يُفقِدُهُ القدرةَ على الشعور بأناه وآخرية هذا المحيط ؛ فالإنسان خُلِقَ مُدرِكاً ـ إذ لا يصح تكليف ما لا يُدرِك ـ ومُكَلَّفاً , وهذا التكليف ـ بوجه من وجوهه ـ هو الإطار العام المنظِّم لطبيعة العلاقة بينه وبين الآخر , مهما كان نوع هذا الآخر , ومهما كانت طبيعة المغايرة بينه وبينه .

إن الله تعالى لم يأمر الملائكة أن تسجد لكائن لا يميز بين ذاته وبين شجر أو حجر , بل أمرها أن تسجد لإنسان خلقه في أحسن تقويم , وجعله خليفة له في الأرض , وعلمه الأسماء كلَّها . ومهما كانت طبيعة هذه الأسماء [14] وطبيعة العلم بها , فإن السياق القرآني يدل على أن عِلْمَه بها ميزة اختصه الله تعالى بها على الملائكة , واستحق بها سجودهم له بأمر الله .

كما يبدو أن الطبيعة الأصيلة للعلاقة بين الأنا (الإنسان) والآخر ليست قائمة على الخضوع أو الصراع أو الإخضاع , كما تحاول بعض الدراسات [15] أن تقول , معتمدة على الفرضيات الغربية التي تُصوِّر الإنسانَ في بداية وجوده على الأرض كائناً هامشياً جاهلاً بحقيقته ومتماهياً مع الطبيعة المحيطة

به حدَّ الذوبان والخضوع , ثم وبعد أن يشعر بمغايرته وتميزه , ينتفض على هذه الطبيعة (الأُم !) , في صراع طويل من أجل التحرر ومن ثم السيطرة على الطبيعة التي طالما أخضعته وأرهبته , لينعكس هذا الصراع فيما بعد على طبيعة العلاقة بين الإنسان والإنسان , في محاولة لشرعنة قانون الغاب الذي تعتمده القوى الكبرى على الساحة الإنسانية وتنظِّر له لتبرير وحشيتها تجاه الآخر فكراً وممارسةً .

إن الطبيعة الأصيلة لهذه العلاقة هي التناغم والتكامل بين الإنسان وبين الطبيعة ؛ إذ أن الله تعالى استخلف الإنسان في الأرض , وسخر له ما في البر وما في البحر * , كما أن العلاقة بين الإنسان والإنسان هي علاقة قائمة على التعارف بما فيه من تواصل وألفة وتكامل ومساواة : " **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** " (16) . وهذه الآية تشير إلى المرجعية الوحيدة التي يعتمدها الفكر الإسلامي للمفاضلة بين الناس , وهي الجوهر الوحيد الذي تعتمده الذات الإسلامية لتحديد الآخر وتحديد طبيعة العلاقة معه , في الوقت عينه الذي تشير فيه إلى أن الاختلاف حقيقة قائمة ولكنها لا تدعو إلى الإقصاء والفرقة بقدر ما تدعو إلى التقارب والتعارف .

إلّا أن ثَمَّةَ صراعاً من نوع آخر يرسم القرآنُ ملامحَه وأبعاده وأهدافَه , هذا الصراع ليس بين الإنسان والطبيعة من حيث الأصل , ولا بين الإنسان والإنسان , بل هو صراع بين الشر والخير , أو قل هو صراع بين التسافل والتكامل , بين ما يريده الشيطان انتقاماً لنفسه وبين ما يريده الله تعالى من أجل تكامل البشرية وسعادتها , وهذا الصراع يتخذ أشكالاً مختلفة وصوراً متعددة كلها تعبر عن الجوهر ذاته , مثَّلَهُ ابتداءً وبأجلى صوره صراعُ الشيطان مع الإنسان ـ متمثلاً بآدم (ع) ـ في قضية السجود لآدم وما تمخض عنه من قصة الشجرة المحرمة وما تبعها . وإذا كان آدم وحواء (ع) قد تلقَّيا درسهما المرَّ بالطريقة الصعبة , فيبدو أن الأبناء لم يتعظوا بما اتعظ به الآباء رغم كثرة تأكيد القرآن على عداوة الشيطان لهم ولأبويهم من قبل * , فلم يطل العهد حتى أغرى قابيلَ بهابيل مُشْرِعاً بذلك نافذة أخرى من نوافذ الصراع , وميداناً جديداً أبطالُهُ ـ أو قل ضُماه ـ بنو آدم انفسهم .

ويتضح من النص القرآني أن الأصل في هذا الصراع ـ أو المعصية بحسب التعبير القرآني ـ بل وفي كل صراع ومعصية , هو الإنّيَّة والاستكبار (17) أو الشعور المتضخم بالذات , أو يمكننا أن نستعير لغة الدكتور عبد الله ابراهيم فنقول هو الاعتصام بالذات , والتحصن وراء أسوارها المنيعة , أو هو التمركز حول الذات الذي يُعرِّفه بأنه " **نمط من التخيُّل المُترفِّع الذي يحبس نفسه ضمن رؤية مقررة سلفاً , فلا يقارب الأشياء إلا عبرها , ويوظف المعطيات كافة من أجل تأكيد صحة فرضياته** " (18) . وهذا التمركز

* ورد في القرآن الكريم أن الشيطان عدو للإنسان في ستة عشر مورداً من أصل ثلاثة وثلاثين مورداً وردت فيها كلمة " عدو " .

يمارس بطبيعة الحال إقصاءً للآخر , وتهميشاً لوجوده , وتصويرَه بصور دونية [19] , ابتداءً بإبليسَ ونظرته لآدم (ع) حيث " **قَالَ : أَنَا خَيرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَني مِن نّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** " [20] , ومروراً بقابيل وقتله هابيل في محاولة لإقصاء منافسٍ لم تستطع الأنا المتضخمة أن تتقبل تقبُلَ السماء منه دونها , وانتهاءً بعصرنا الحالي الذي تُمارَسُ فيه كلُّ عمليات التهميش والإقصاء والاحتقار بأساليب " **حضارية ومقنَّنة** " .

إن الشعور بالذات والتمايز عن الآخرين هو حقيقة إنسانية لا يمكن إنكارها أو تجاوزها , بقدر حقيقة المغايرة والاختلاف المتجذرة في الوجود . ولكن التمركز الأعمى حول الذات , وإقصاء الآخر , أو الانتقاص منه , لا يعبر عن سلامة الشعور بالذات واستقلالها بقدر ما يعبر عن رهبة مَرَضية من الآخر تؤدي إلى الانغلاق التام أمام هذا الآخر بما يحمله من إيجابيات وسلبيات . كما أن التماهي مع الآخر ـ فرداً أو جماعةً ـ والانصهار في كل ما يحمله ويمثله ليس انفتاحاً بقدر ما هو انسحاب وانسحاق أمام هذا الآخر قد لا نجد له ما يسوّغه بالنسبة إلى ذات تحمل ما تحمله الذات الإسلامية والعربية من تاريخ وحضارة ومقومات . فـ " **اليَمِينُ وَالشِّمالُ مَضَلَّةٌ ، وَالطَّرِيقُ الوُسْطَى هِيَ الجَادَّةُ** " [21] , ولا يمكن أن تكون العلاقة مع الآخر محصورة بين الرفض والإقصاء من جهة وبين التماهي والذوبان من جهة أخرى , إذ لا بدَّ من " جادّة وسطى " تحافظ فيها الذات على ما ثبت صحته من مقوماتها , وفي الوقت عينه تنفتح على الآخر مميزة بين غثّه وسمينه .

ويبدو أن الممارسات الإقصائية التي حفل بها التاريخ البشري على مستوى الأفراد والجماعات والحضارات دفعت بالكثير من الباحثين إلى الانزلاق في ردة فعل لا تقل خطورة عن الممارسات الإقصائية ذاتها , تلك هي التنازل عن كل الثوابت التي تبتني عليها القيم , بل ورفض كل قيمة ثابتة يمكن أن يُقِيْم عليها الإنسان بناءه الفردي أو الاجتماعي , في محاولة للتعايش مع الآخر المختلف مهما كانت متبنياته , ومهما كانت أساليبه في تحقيق هذه المتبنيات , وكأنَّ هذا التعايش لا يمكن أن يكون إلّا بتحييد الـ (أنا) وإلغاء وجودها وفاعليتها . وهذا ما أدخل الدراسات الفكرية والأدبية العربية والإسلامية المعاصرة في مأزق محاولة تطويع التراث العربي والتراث الإسلامي لتبني أفكار وممارسات تُفقِد هذا التراثَ شخصيتَهُ وهويته المميّزة .

يقول الدكتور عبد الله ابراهيم إن التمركز حول الذات يحتاج إلى " **نقد متحرر من أية مرجعية ثابتة , سواء كانت عرقية أو دينية أو ثقافية , فالمرجعية التي يمكن اعتبارها * الموجِّه لعملية النقد هي الممارسة التحليلية الجريئة التي تتعرض لفك التداخل بين الظواهر التي تلازمت فأوجدت هذا**

---

* كذا في الأصل .

الضرب من التخيل القائم على الرغبة " [22] . وما من شك في أن المرجعيات العربية والإسلامية التي أسست لهذا التمركز المتورم والخطير حول الذات بحاجة إلى عملية نقد جريئة تستأصل ما علق في الذات الإسلامية من أوهام دخيلة , ومخلفات استطاعت أن تعبر الحد الفاصل بين الجاهلية والإسلام متوارية عن أعين الرقباء بأقنعة شوهاء . ولكن هل من الممكن ـ عملياً ـ التحرر من " **أية** " مرجعية ثابتة , أم أن المقصود هو التحرر من مرجعيات معينة والإبقاء على أخرى أضمرها النص ؟ أليس لهذه الممارسة التحليلية الجريئة من أسس ومبادئ يبتني عليها النقد والتحليل ؟ وما النقد إن لم يكن قراءة وفق معايير معينة ؟ ثُمّ أليست الدعوة إلى التحرر من أية مرجعية ثابتة هي بحد ذاتها مرجعية ثابتة ؟ ! , وإذا كان الأمر كذلك فما هي هذه المرجعية بعد أن استبعدنا المرجعيات العرقية والدينية والثقافية ؟ ! .

" **انَّ العالم كمجال ثقافي سيبقى مضماراً للمنازعة والمدافعة** " [23] ما بقي فيه الإنسان بحمولاته المعرفية والثقافية , وهذه حقيقة لا يمكن أن يغيرها التنازل عن بعض المتبنيات أو كلها , أو التحول من المتبنيات الإسلامية إلى أخرى علمانية . كما لا يمكن أن تغيرها أوهامُ احتكار الحقيقة وأوهام التفوق ومحاولة إقصاء الآخر وتهميشه . بل قد تكون حقيقة المنازعة هي المحرك الأكبر لعجلة التطور الإنساني بميادينه المختلفة , ولكن ليس من الضرورة أن تقوم هذه المنازعة على القمع أو أن تتخذ أشكالاً عنيفة , بل يجب أن تمرر عبر غربال من وضوح الرؤية وسلامة القصد .

ولعل بالإمكان الاستفادة من بعض آيات القرآن الكريم ـ لا سيما ما يتعلق باستخلاف آدم (ع) في الأرض ـ في تأسيس بناء نظري متكامل لعلاقة الإنسان * بالآخر ـ بأنواعه المختلفة ـ حسب المنظور الإسلامي . ومع أن هذا التأسيس يحتاج إلى بحث مستقل ومجال أوسع , إلا أن البحث سيحاول الإشارة إلى ما يمكن الإشارة إليه والإفادة منه , دون أن يدَّعيَ احتكار الحقيقة , أو الإحاطة بكل ما يمكن الإحاطة به من جوانب الموضوع :

1. انَّ ثمة أنواعاً أربعة من الآخر يمكن أن يشار إليها في مقابل الذات الإنسانية , وإنَّ طبيعة علاقة الإنسان مع الآخر محكومة بالنوع الذي يمثله هذا الآخر , وهذه الأنواع هي :
   - أ . الآخر ** الخالق (الله تعالى)
   - ب . الآخر العدو (إبليس وجنوده)
   - ج . الآخر المماثل (الإنسان)

---

* الحديث هنا عن الإنسان الذي يفترض أنه يتحرك وفق المنهج الذي أراده الله له , وإلا فلا يمكن أن يصح شيء مما سيطرحه البحث .

** ان توصيف الخالق (جل اسمه) بالآخر في مقابل ذات الإنسان ليس توصيفاً حقيقياً ؛ إذ لا وجود للإنسان مستقلاً عن وجوده تعالى , فضلاً عن أن يكون له وجود في مقابل الوجود الإلهي . إلا أن هذا التوصيف هو توصيف توضيحي لا غير .

د . الآخر المُسَخَّر (موجودات الكون الأخرى)

2. ان الآخر الذي يمتلك وجوداً حقيقياً ومستقلاً وفاعلاً , والذي تنبثق من طبيعة العلاقة معه طبيعةُ علاقةِ الإنسان مع الآخر ـ بأنواعه الأخرى كلها ـ هو الله تعالى / الآخر الخالق ، بحيث تكون هذه العلاقة هي المُوَجِّه والمُشَكِّل لطبيعة العلاقة مع الآخر عدواً كان أم مماثلاً أم مُسَخَّراً . وهذا ما يشير إليه أمير المؤمنين (ع) بقوله : " **ما رأَيتُ شَيئاً إلاّ وَرَأيتُ اللهَ قَبلَهُ وَبَعدَهُ وَمَعَهُ** " [24] . فهو لا **يرى** لأيِّ وجود استقلالاً عن الوجود الإلهي , ولا يرى شيئاً من هذا الوجود إلا من خلاله , فالعلاقة مع الأشياء ـ كلِّها ـ هي في حقيقتها علاقة مع الله وما هذه الأشياء إلا واسطة لتلك العلاقة الأصيلة . فالمسلم يحب ويبغض , ويتفق مع هذا ويختلف مع ذاك , ويفعل هذا الأمر ويترك ذاك بما تمليه عليه طبيعة العلاقة مع الله تعالى , تلك العلاقة التي تتمحور على الإيمان والتسليم .

3. إن العلاقة مع الآخر / الخالق , والآخر / العدو , والآخر / المُسَخَّر , هي علاقة محددة الاتجاه , وهذا لا يعني جمودها وعدم إمكانية تغييرِها , ولكنَّ ثبات طبيعة هذا الآخر بشكل عام يؤدي إلى أن تكون العلاقة معه محددة بخطوط عريضة ثابتة نسبياً ؛ فالله تعالى هو الموجود المطلق الذي لا يمكن أن تكون ذاته المقدسة محلاً للتغيرات . وإبليس هو العدو المطلق الذي نذر نفسه وجنوده لإضلال الإنسان والحط من شأنه , ولا يمكن أن يكون في يوم ما ناصحاً شفيقاً . وموجودات الكون الأخرى على اختلافها قد سُخِّرَت للإنسان , والإنسان هو سيد هذه الموجودات , ومن هنا فإن طبيعة العلاقة مع هذا الآخر هي علاقة غير متغيرة , أو على الأقل يجب أن لا تكون متغيرة . فلا يمكن أن يكون الله تعالى إلا معبوداً , ولا يمكن أن يكون إبليس إلا عدواً , ولا يمكن لموجودات الكون الأخرى أن تكون معبوداً أو عدواً , بل هي موجودات حيادية , سخرها الله تعالى للإنسان . وهذا لا يسلب الإنسان إرادته وقدرته على الاختيار , فالإنسان يستطيع أن يكون عدواً لله وعبداً للشيطان , ولكن البحث يتحدث عما يجب أن يكون , وفق ما يستفاد من النصوص القرآنية والفهم الإسلامي العام .

4. إن العلاقة مع الآخر المماثل / الإنسان هي علاقة غير ثابتة , ولا يجب أن تكون ثابتة إلا بمقدار ثبات الخط والمنهج الذي يمثله هذا الآخر , فهي في أصلها ليست علاقة مع هذا الإنسان أو ذاك , بقدر ما هي علاقة مع منهج معين وآيديولوجيا معينة , ومن ثم مع هذا الإنسان أو ذاك تبعاً للمنهج الذي ينتمي إليه والحمولة الآيديولوجية التي تحرِّكه , فإذا تحول إنسان ما من منهج إلى آخر تحولت العلاقة معه من شكل إلى آخر , وعليه يجب أن تكون الذات منفتحة على الإمكانات كلها في الوقت عينه الذي تكون فيه ملتزمة بثوابتها المبدئية . لهذا يقول أمير المؤمنين (ع) : " **أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا , عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا ،**

وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً مَا , عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَا " [25] . وهذا الحب والبغض يعتمد بطبيعة الحال على موقع هذا الآخر من الصراع بين التسافل والتكامل , بين الشيطان والله , وليس مهما بعد ذلك أن يكون عربياً أو أعجمياً , أبيضَ أو أسودَ أو أحمر , شريفاً أو ضعيفاً , فـ " **إنما أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إذا سَرَقَ فيهم الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وإذا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عليه الْحَدَّ وأيم اللَّهِ لو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا** " [26] .

5. ان مركزية العلاقة مع الآخر / الخالق (الله تعالى) تقسم الآخر إلى قسمين : آخر موافق , وآخر مخالف . وهذه الموافقة أوالمخالفة لا يمكن أن تتمحور إلا على طبيعة علاقة هذا الآخر بالله ومدى انسجامه مع الآيديولوجية الإلهية .
6. ان العلاقة مع الآخر المخالف آيديولوجياً ليست قائمة على الإقصاء أو التهميش أو المحاربة , بل هي علاقة انفتاح ودعوة إلى الحوار المنتج : " **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** " [27] , فإن أبى فـ " **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** " [28] , ولكن هذا الانفتاح لا يعني الانسجام مع هذا الآخر والتماهي معه أو موالاته وإن كان ذا قربى , بل هو لا يمنع من الرفض الفكري القائم على أساس الاستقلال وعدم التبعية : " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** " [29] , وهذا الرفض أو المقاطعة لا يمنع من المصاحبة بالمعروف : " **وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** " [30] , ولا يمنع من الدفع بالتي هي أحسن [31] والابتعاد عن الممارسات العنفية , إلا إذا اختار هذا الآخر موقف العداء والمضايقة والحجر على الفكر القويم " **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ , وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** " [32] .

بقيت نقطة لا بد من الوقوف عندها والتركيز عليها وهي أنَّ ثمة ذاتاً يمكن أن نسميها (ذاتاً ثقافية) وهي ذات الإنسان عادة , وهذه الذات تنبني وتتشكل ـ بطبيعة الحال ـ من خلال التفاعل مع محيطها والتأثر بأنساقه وأنماطه ومرجعياته تبعاً لاستعداداتها وإمكاناتها ولطبيعة اتصالها بهذا المحيط ,

وهذه الذات لا يمكنها بحال من الأحوال أن تدَّعي امتلاك الحقيقة المطلقة , ومن ثم فإن حق الآخر في الاختلاف مع متبنياتها لا يقل عن حقها في هذه المتبنيات . وفي هذه الحالة فإن " **نفي الآخر هو نقص في الذات لأن تصور الذات لا ينفصل عن تصور الآخر** " (33) , بل إن الآخر في هذه الصورة هو جزء من الذات ونفيه يُعَدُّ بتراً لها (34) ؛ لأن غنى هذه الذات المعرفي معتمد على مدى انفتاحها على الآخر ؛ لأنه مصدر ثرائها الوحيد .

أما إذا كانت الذات مطلقة ـ ونقصد بها الذات الإلهية المقدسة ـ أو كانت ممثِّلةً للمطلق , بمعنى أنها مبتنية وفق اشتراطات المطلق دون أن يكون لغيره تأثير في تشكلها ـ ونقصد بها ذات الرسول (ص وآله) مثلاً ـ فلا مجال ـ عندها ـ للحديث عن حق الآخر في الاختلاف معها ـ داخل منظومتها على أقل تقدير ـ , فلا يمكن أن يكون لإبليس الحق في أن يعصي الله ثم لا يطرد من منظومة رحمته , ولا يمكن أن يكون لأبي لهب الحق في محاربة رسالةَ السماء , ثم لا يكون لهذه الرسالة الحق في أن تعلنه عدواً مطروداً من رحمة الله , وهذا بطبيعة الحال لا يصادر حق الآخر في الرأي والاعتقاد , ولكنه يحمِّله مسؤولية اختياره والتبعات المترتبة عليه , فللإنسان الحق في اختيار تحدي قانون الجاذبية بالقفز من شاهق في محاولة للطيران بواسطة يديه المجردتين , ولكن عليه أن يتحمل تبعات ذلك .

ومع هذا فإن الاختلاف مع المنظومة الإلهية , والخروج عن ثوابتها , لا يعني إعلان الحرب من قبلها , شرط أن لا يكون هذا الخروج إعلاناً للحرب عليها أو تهديداً لوجودها وحريتها وفاعليتها ؛ لأن هدف الإسلام الأساس والنهائي هو إصلاح الإنسان وبناؤه فرداً ومجتمعاً , والحرب , وما تتضمنه من إرغام وإكراه , لا يمكن أن تكون أُسلوباً مناسباً لتأمين هذا الهدف (35).

انطلاقاً من هذا الفهم فإن الآخر ليس شخصاً بعينه , ولا عرقاً معيناً , ولا قومية ما , بل هو النهج المغاير للمعايير السماوية . والفكر الإسلامي لا يدَّعي أنه يحتكر هذه المعايير , بقدر ما يدعو إلى الانفتاح على الآخر والتفاعل معه إيجابياً وفقها , شرط أن يكون هذا الآخر يصدر عن مرجعيات سماوية حقيقية .

ويبدو أن عدم التفريق بين الآيديولوجيات التي تنتمي إلى أصول سماوية وبين الأخرى المتقاطعة مع السماء من جانب , والتداخل بين الآيديولوجيا وحامل هذه الآيديولوجيا من جانب آخر , أحدث إرباكاً في فهم هذه القضية على وضوحها . يقول الباحث غالب حسن الشابندر في سياق الحديث عن الموقف القرآني من الآخر : " **فأصبح الآخر هو المسيحي واليهودي والماركسي والمسلم والقومي والبوذي , فيما المقصود في العمق المسيحية واليهودية والبوذية والماركسية** " (36) . وفي هذا الفهم خلط غير مبرر بين الماركسية والبوذية من جانب , وبين اليهودية والمسيحية من جانب آخر , فإذا كان هذا الحديث يصدق على الماركسية التي تتعارض وتتقاطع أصلاً مع الفكر الديني , فإنه لا يمكن أن يصدق على

اليهودية والمسيحية إلا بمقدار ما تعرضت له من تحريف أبعدها عن خط السماء ومرجعياتها , وإلا فإن القرآن صريح في عدم تفريقه بين الديانات الإلهية طالما حافظت على ثوابتها . يقول تعالى : " **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** " (37)

إن الوعد الإلهي قرن سعادة الإنسان في الأرض بأمرين هما : الهدى الإلهي أولاً , واتِّباع هذا الهدى من قبل الإنسان ثانياً , في قوله تعالى : " **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى , وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى** " (38) , ولئن كان وجود الهدى الإلهي الذي وُعِد به الإنسان قد تحقق عبر رسالات السماء عموماً ورسالة الإسلام خصوصاً بوصفها الرسالة الخاتمة الكاملة , فإن الخطوة الثانية منوطة بالإنسان نفسه , يستطيع أن يتَّبع هدى الله فلا يرى شيئاً إلا ويرى الله قبله وبعده ومعه , ويستطيع أن لا يبصر أبداً إذا كان ممن يستحبون العمى على الهدى * .

إنَّ العلاقة مع الآخر هي في حقيقتها انعكاس للعلاقة مع الله تعالى , وبما أن المقاييس الإلهية تعتمد التقوى مرجعيةً للقرب والمفاضلة " **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** " (39) , والتقوى هنا لا يمكن أن تُفهَم بمعنى السلبية والسكون , بل هي إحساسٌ موجِّهٌ ومُحفِّزٌ للفكر والعمل معاً , وبمعنى آخر فإن هذه التقوى , لكي تكون مُقرِّبةً إلى الله تعالى , يجب أن تُترجَم نهجاً في الحياة , وفاعليةً في السير على هذا النهج , وبهذا فإن أكرم الناس على الله هو أحفظهم لشريعته روحاً وفكراً وممارسةً , وعلى أساس هذا القرب أو البعد يجب أن تنبني العلاقة مع الآخر .

وبهذا الفهم لن يكون الآخر مشركاً أو مسيحياً أو يهودياً أو بوذياً أو ماركسياً إلا بالقدر نفسه الذي يمكن أن يكون فيه مسلماً يشهد الشهادتين ويقرأ القرآن ويصلي خمس مرات في اليوم , سواء أكان هذا " المسلم " منافقاً أظهر الإسلام وأضمر خلافه , أم كان جاهلاً لا يعرف من الإسلام إلا الجبهة السوداء , وكثرة قراءة القرآن . ولقد كان المنافقون أشدَّ خطراً على الإسلام من المشركين أنفسهم , ولم ينل المشركون من الإسلام ما ناله المنافقون , وحسبهم أن القرآن أنزل فيهم سورة كاملة , وقال فيهم : " ... **هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ** " (40) .

---

* قال تعالى في سورة فصلت : 17 : " **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** " .

الهوامش :

---

[1] ينظر مثلاً : القاموس المحيط , المعجم الوسيط , المحكم والمحيط الأعظم , لسان العرب , تاج العروس ,

[2] ينظر مثلا : الصحاح , المصباح المنير , لسان العرب , المعجم الوسيط , تاج العروس

[3] ينظر مثلاً : درة الغواص في أوهام الخواص : 145 ـ 146 , والمقتضب : 3 : 242 ـ 244 , وتفسير البحر المحيط : 2 : 40 , وكتاب الكليات : 62 .

[4] خزانة الأدب : 9 : 110 .

[5] روح المعاني : 5 : 165 .

[6] خزانة الأدب : 9 : 363 .

[7] سورة النساء : آية 133 .

[8] . ينظر مثلاً : روح المعاني : 5 : 164

[9] ينظر مثلاً : الكشاف : 1 : 607 .

[10] ينظر : موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم : 1 : 71 .

[11] دليل الناقد الأدبي : 22 .

[12] ينظر : الآخر في القرآن : 38

[13] ينظر مثلاً : التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر : 17 وما بعدها

[14] ينظر في معنى الأسماء وتعليمها آدم (ع) : الميزان في تفسير القرآن : 1 : 112 وما بعدها .

[15] ينظر : التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر : 24

[16] سورة الحجرات : آية 13

[17] ينظر : الميزان في تفسير القرآن : 8 : 23 , 24 .

[18] المركزية الإسلامية : 12 .

[19] ينظر : المركزية الإسلامية : 12 .

[20] سورة ص : آية 76

[21] نهج البلاغة : 97 .

[22] المركزية الإسلامية : 12 , 13

[23] المركزية الإسلامية : 10 .

[24] شرح أصول الكافي : 3 : 83 .

(25) نهج البلاغة : 773 .

(26) صحيح البخاري : 3 : 1282 .

(27) سورة آل عمران : آية 64 .

(28) سورة يوسف : آية 108 .

(29) سورة التوبة : آية 23 .

(30) سورة لقمان : آية 15 .

(31) ينظر سورة فصلت : آية 34 .

(32) سورة البقرة : آية 217 .

(33) صورة الآخر في الخطاب القرآني : 16 .

(34) ينظر : صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه : 22 .

(35) ينظر : بين الجاهلية والإسلام : 74 .

(36) الآخر في القرآن : 40 .

(37) سورة المائدة : 69 آية , وينظر : سورة البقرة : آية 62 .

(38) سورة طه : آية 123 , 124 .

(39) سورة الحجرات : آية 13

(40) سورة المنافقون : آية 4 .

المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم
- الآخر في القرآن ـ غالب حسن الشابندر ـ مركز دراسات فلسفة الدين ـ بغداد ـ سلسلة ثقافة التسامح ـ 2005 م .
- البحر المحيط ـ محمد بن يوسف أبو حيان الاندلسي ـ تحقيق : الشيخ عادل احمد عبد الموجود وآخرون ـ دار الكتب العلمية ـ لبنان ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ 2001 م .
- بين الجاهلية والاسلام ـ الشيخ محمد مهدي شمس الدين ـ المؤسسة الدولية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ـ 1995 م .
- تاج العروس من جواهر القاموس ـ السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ـ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ـ سلسلة التراث العربي ـ وزارة الارشاد والانباء في الكويت ـ 1965 .
- التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر ـ الدكتور أحمد ياسين السليماني ـ إشراف الأستاذ الدكتور جابر عصفور ـ دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع , دمشق سوريا ـ الطبعة الأولى 2009 م .
- خزانة الادب ـ عبد القادر بن عمر البغدادي ـ تحقيق محمد نبيل طريفي و أميل بديع اليعقوب ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الاولى ـ 1998 م .
- درة الغواص في أوهام الخواص ـ القاسم بن علي الحريري , ت 516 هـ ـ تحقيق عرفات مطرحي ـ مؤسسة الكتب الثقافية / بيروت ـ الطبعة الأولى 1418 هـ ـ 1998 م .
- دليل الناقد الأدبي ـ الدكتور ميجان الرويلي والدكتور سعد البازعي ـ المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء ـ بيروت ـ الطبعة الخامسة ـ 2007 م .

- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني ـ شعاب الدين الآلوسي البغدادي المتوفى سنة 1270 هـ ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان .
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ـ اسماعيل بن حماد الجوهري ـ تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ـ 1984 م .
- صحيح البخاري ـ محمد بن اسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي ـ تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا ـ دار ابن كثير اليمامة ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ـ 1987 م .
- صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه ـ تحرير : الطاهر لبيب ـ الجمعية العربية لعلم الاجتماع ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ الطبعة الثانية ـ 2008 م .
- صورة الآخر في الخطاب القرآني دراسة نقدية جمالية ـ الدكتور حسين عبيد الشمري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ 2008 م .
- القاموس المحيط ـ محمد بن يعقوب الفيروز ابادي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ـ للعلامة جار الله ابي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ـ تحقيق وتعليق ودراسة الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض , شارك في التحقيق الأستاذ الدكتور فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي ـ مكتبة العبيكان ـ الطبعة الأولى ـ 1418 هـ ، 1998 م .
- الكليات ـ أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي ـ تحقيق عدنان درويش و محمد المصري ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ 1988 م .
- لسان العرب ـ محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ـ اعتنى بتصحيحه أمين محمد عبد الوهاب , محمد الصادق العبيدي ـ دار إحياء التراث العربي ـ مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الاولى ـ 1995 م .
- المحكم والمحيط الاعظم ـ ابن سيده المرسي ت 458 ـ تحقيق : عبد الحميد هنداوي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الاولى ـ 2000 م .
- المركزية الاسلامية ـ الدكتور عبد الله ابراهيم ـ الدار العربية للعلوم ناشرون ـ الطبعة الأولى ـ 2010 م .
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ـ أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ت 770 هـ ـ المكتبة العلمية ـ بيروت .

- المعجم الوسيط ـ إبراهيم مصطفى . أحمد الزيات . حامد عبد القادر . محمد النجار ـ تحقيق : مجمع اللغة العربية ـ مجمع اللغة العربية ـ الطبعة الثالثة .
- المقتضب ـ ابو العباس محمد بن يزيد المبرد ـ تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ـ 1994 م .
- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ـ محمد علي التهانوي ـ تحقيق : علي دحروج ـ سلسلة موسوعات المصطلحات العربية والاسلامية ـ مكتبة لبنان ، ناشرون ـ الطبعة الاولى ـ 1996 م .
- الميزان في تفسير القرآن ـ محمد حسنين الطبأطبائي ـ مطبوعات دار الأندلس ـ بيروت ـ لبنان ـ الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ 2010 م .
- نهج البلاغة المختار من كلام أمير المؤمنين (ع) ـ لجامعه الشريف الرضي محمد بن الحسين بن موسى ـ تحقيق السيد هاشم الميلاني ـ الناشر : العتبة العلوية المقدسة ـ مطبعة التعارف ـ الطبعة الثالثة ـ 2010 م .